الفصل الأول

شعر الوحدة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد

- السلطان عبد الحميد ودعوته إلى الوحدة
- شعر الوحدة في عهد السلطان عبد الحميد

السلطان عبد الحميد ودعوته إلى الوحدة

في عام ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م تولى السلطان عبد الحميد الخلافة والدولة الإسلامية على حال تسر العدو وتحزن الصديق . ولعل أفضل من يحدثنا عن حالها السلطان عبد الحميد نفسه حيث يقول : « عندما توليت الحكم ، كانت ديون الدولة تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة وفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة ، أي إلى العشر ، وذلك بعد دفع ما تطلبته حربان كبيرتان وعدة تمردات داخلية » [١] . ويصف ظروف الدولة وقت توليه السلطة فيقول : « لقد تمرد البوسنة والهرسك ، فهزموا الجيش العثماني وحاصروه في الجبل الأسود وأعلنت الصرب [٢] الحرب علينا وخاضتها بقوات منظمة ، ثم انفجرت علينا الحرب الروسية [٣] الفظيعة ولم يكن ذلك من نتاج عهد سلطنتي ، فقد توليت السلطنة بعد خلع سلطانين متعاقبين ، وبعد أزمة وزارية استمرت ثلاثة وتسعين يوماً ، وفراغ في السلطنة ، ومع ذلك كله ، فالأمة كانت تزعم أنها وصلت إلى رشدها » [٤] .

هذا ولقد أدرك السلطان عبد الحميد أهداف الأعداء وأطماعهم وتحمل المسؤولية بكل جرأة وشجاعة وكان أهلاً لها ، فعمل على جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم لمقاومة الخطر الداهم ، ونشر شعاره المعروف « يا مسلمي العالم اتحدوا » ودعا المسلمين إلى الالتفاف حول تركيا ؛ لأنها دولة الخلافة الإسلامية وأقوى تلك الشعوب وأقدرها على تحمل المسؤولية وقيادة المعركة ضد عدو المسلمين المشترك ، فقال : « يجب تقوية روابطنا بالمسلمين في كل مكان وأن يقترب بعضنا من بعض أكثر وأكثر ، فلا أمل لنا إلا بهذه الوحدة ومع أن وقتها لم يحن بعد ، لكنه سيأتي ، وسيأتي اليوم الذي يتحد فيه جميع المؤمنين ، وينهضون نهضة رجل واحد ، وفيه يحطمون رقبة الكفار » [٥] .

وأعلن أن سكة حديد الحجاز وسيلة من وسائل الوحدة الإسلامية فقال : « علينا أن نتم خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة في أسرع وقت ... ففي هذا تقوية للرابطة بين

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٢ .

(٢) البوسنة والهرسك والجبل الأسود والصرب : هذه المناطق كانت تابعة لتركيا ، والآن هي من ضمن الجمهوريات اليوغسلافية .

(٣) هذه الحرب قامت بين روسيا وتركيا سنة ١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ص ٨ .

المسلمين كما فيه جعل هذه الرابطة ـ بعد تقويتها ـ صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الإنجليزية » [١] .

وقد استجاب المسلمون لندائه فانهالت تبرعاتهم من كافة أقطار الأرض حتى أن السلطات الهولندية اضطرت إلى اتخاذ إجراءات خاصة لمنع المسلمين في جزائر الهند الشرقية من إجاعة أنفسهم قبل إتمام الخط الحديدي [٢] . وتبرع أمير من الهند بمليون فرنك لإنشاء محطة في المدينة المنورة [٣] . ورصدت أثمان جلود الضحايا يوم عيد الأضحى للمشروع [٤] .

ولقد تم إنجاز هذا المشروع بسرعة خارقة على الرغم من مناهضة أوروبا له . فقد كانت روسيا غير راضية عنه . وكان جلادستون ودزرائيلي قد اتفقا على مهاجمة المشروع [٥] على الرغم من الخلافات الكثيرة الناشبة بينهما .

وقد تضمن برنامج السلطان عبد الحميد في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية أن قام بطبع آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في أنحاء البلاد [٦] .

وعمد إلى ما هو أكبر من ذلك حيث عَمِل على حلّ الخلاف القديم بين فريقي الأمة الإسلامية أهل السنة والشيعة والتوفيق بينهما وكان يقول : « إن الروايات الشريرة المتعلقة بعائشة أم المؤمنين سوف تخرس إلى الأبد ، وإن السم القديم يجب ألا يترك حتى يسري في جسد آسيا القوى ، وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوروبا في محاولتها قهر العالم » [٧] .

وكان رحمه الله يصف تركيا بأنها نافذة الإسلام التي سيشع منها النور الجديد [٨] .

ولقد أشار إلى إمكان تحالف النصارى ضد المسلمين فقال : « إننا نقف بمفردنا وإن في العالم لنا أعداء وليس لنا صديق ، وإن في وسع الصليب أن يتحد في كل وقت . لكن الهلال يبقى دائماً بمفرده » [٩] .

ولقد دعا إلى تقوية الروابط الإسلامية فقال : « يجب علينا أن نقوي الأواصر الإسلامية

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٨ .

(٢) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٨ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٥) المصدر السابق : ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٦) المصدر السابق : ص ١٧٤ .

(٧) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٨) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٩) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦٤ .

بحيث يتساند مسلمو الصين والهند وأفريقيا مع باقي المسلمين في شتى أنحاء الأرض » [١] .

وأكد أن الوحدة هي التي تحقق القوة والرهبة فقال : « يجب علينا أن نقوي صلاتنا بالبلدان الإسلامية ، وأن يكون التقارب بيننا أفضل مما هو عليه الآن ، فإنه لا أمل لنا في المستقبل إلا بالوحدة ، وإن بقاء الوحدة الإسلامية يعني بقاء انجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا تحت نفوذنا ذلك لأن كلمة واحدة من الخليفة تكفي لإعلان الجهاد في البلدان الإسلامية الواقعة تحت سيطرة هذه الدول ووقوع الكارثة بالنصارى . ولا ريب في أن اليوم الذي يقوم فيه المؤمنون قومة رجل واحد ويحطمون أغلالهم آتٍ لا محالة » [٢] .

ولقد كان السلطان عبد الحميد شديد الثقة بالرابطة الإسلامية التي يجب أن تعلو على الرابطة العثمانية ، وبالإسلام الذي هو مصدر كل أخوة ووحدة فقال : « إن الإمبراطورية العثمانية دولة ضمّت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب فتكونت من الأتراك والعرب والأكراد والأرناؤوط والبلغار واليونان ... ولقد جمعتهم الرابطة الإيمانية ، وجعلتهم أفراداً في أسرة واحدة فعلينا أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين ، وأن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الإمبراطور العثماني . فإن الإسلام هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة » [٣] .

ولقد أبدى السلطان عبد الحميد أسفه البالغ لظهور القوميات والعصبيات التي يغذيها أعداء الإسلام والتي تفرق ولا تجمع ، وتهدم ولا تبني فقال : « علينا أن نعترف بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا ، فتحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا ، وظهرت في سورية بوادر حركة مماثلة » [٤] .

ولقد عمل السلطان عبد الحميد على مدّ يد العون للمسلمين في كل مكان وأعلن أنه يساند مطالبهم العادلة ، فعمل قناصلته وسفراؤه على تنفيذ خطته . من ذلك أن الحكومة الهولندية شكت له القنصل التركي في جاوا وقد كانت مستعمرة لها فقال في مذكراته عن هذا الحادث : « لقد طالب القنصل التركي في جاوا [٥] بأن يُرفع الأذى عن المسلمين في تلك البلاد وأن يُعْطَوا حقوقاً تساوي الحقوق الممنوحة للأوروبيين . ولم يجانب الصواب مرّة أو يخرج عن نطاق عمله الرسمي . فإن القسم الأعظم من النشاط التجاري في جاوا بيد

---

(١) السلطان عبد الحميد العثماني : مذكراتي السياسية ، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٧٧ .

(٥) جاوا : جزيرة أندونيسية .

العرب وهم يدفعون نسباً عالية من الضرائب تزيد على ما يدفعه الأوروبيون أضعافاً مضاعفة . ومن الطبيعي أن ينالوا حقوقاً تساوي الحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون على الأقل . ومن واجبنا أن نسعى إلى ذلك . إننا نساند بكل قوة مطالب إخواننا المسلمين العادلة في جاوا » [١] .

وكان يرحب بالوفود الإسلامية التي تزور دار الخلافة ، ويرى فيها تقوية للروابط الدينية حيث قال : « علمت أن وفداً من العرب المسلمين من أعيان باتافيا Batavya يريد مقابلتي لتقديم احترامه وولائه بصفتي خليفة المسلمين فعلى الرحب والسعة . إن هذه الزيارة بادرة طيبة ستثبت للكفار مدى قوة الأواصر بين المسلمين » [٢] . ولقد تأثر المسلمون بدعوته واستجابوا لندائه فتقاطرت وفودهم على الأستانة . وخاصة بعد أن أدركوا أطماع الدول فيهم ، وتعرضوا للمذابح الكثيرة .

ففي سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م وقعت في البلقان عدة مذابح قتل فيها الكثير من المسلمين لتجردهم من السلاح وعدم قدرتهم على رد القوة بمثلها [٣] . وقد هب السلطان لنجدتهم وأبرق لقيصر روسيا يستنكر تلك المجازر ويدعوه إلى الرأفة بهم ، وقد ورد في إحدى البرقيات ما يلي :

« إن الأخبار التي بلغت دولتي عن المصائب والمحن التي نزلت بالمسلمين القاطنين في البلغار ، وفي ولاية (الروم إيلي الشرقية) من شأنها أن تحرك رحمتكم ، وتحملكم على إنكار هذا العدوان الذي أوقعه البلغاريون بألوف من النفوس فلم يتركوا شيئاً من الفظائع إلا وفعلوه ، فغصبوا الأموال ، وهتكوا الأعراض ، وقتلوا النفوس ، وجعلوا ذلك ديدنهم في كل يوم ، فأصبح المهاجرون المساكين الذين كابدوا هذه الكوارث في أسوأ حال . إننا نعتمد على على إنسانيتكم ، ونرجو من همتكم أن تعطوا الأوامر لصيانة المسلمين ، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم » [٤] .

ويقول العالم الأمريكي ستودارد عن السلطان عبد الحميد ودعوته إلى الوحدة : « لقد استطاع السلطان عبد الحميد أن ينشر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية الكبرى في أوسع الآفاق ، وأن يحيي الشعور بذلك لدى جميع الشعوب الإسلامية ، وأن يبث فيها النشاط لتحقيقها ، ولم يكن يعتمد في ذلك على خلافته للمسلمين فحسب ، وإنما كان يستعين على

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٣ .

(٣) تاريخ الدولة العلية : ص ٣٣٩ .

(٤) كنز الرغائب في منتخبات الجوائب : جزء ٧ ، ص ١ .

دعوته بما كانت ترتكبه الدول الغربية من ضروب العداء للإسلام والمقت للمسلمين . والتحامل عليهم » [١] .

هذا . ولقد عمل أعداء الإسلام على تمزيق الوحدة الإسلامية ، ولا سيما بعد أن رأوا تعاطف المسلمين مع السلطان عبد الحميد واستجابتهم لندائه .

ولا أدل على ذلك من كلمة القسيس سيمون التي يقول فيها : « إن الوحدة تجمع آمال الشعوب السمر . وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية » [٢] .

ولقد جند الأوروبيون المبشرين لهذا الغرض وقالوا : « يجب أن نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية ، حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين » [٣] . و : « كان الإفرنسيون يخافون من المساعي لتحقيق الوحدة الإسلامية » [٤] ثم إن القوى العالمية عملت على إثارة الفتنة بين العرب والأتراك ، وقد استغلت مساوئ بعض الولاة العثمانيين فأوحت للعرب أن الخلافة يجب أن تكون في أيديهم وأن يكون مركزها مكة ، حيث يقول المستر بلانت أحد الكتاب الإنجليز : « إن مركز الخلافة يجب أن يكون مكة ، وإن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً » [٥] .

ثم عملت تلك القوى على تنشيط الحركة القومية في البلاد العربية واعتمدت على النصارى في الدعوة لها .

ذكر جورج أنطونيوس في كتاب يقظة العرب [٦] أن الرواد الأوائل للحركة القومية في البلاد العربية كانوا نصارى ، وأنهم كانوا على صلة بالماسونية الأوروبية وفروعها في المشرق العربي ، وكانوا يوزعون المنشورات التي تندد بالأتراك وتدعو العرب إلى الثورة ضدهم . وكانوا يريدون إضعاف المسلمين وبعثرة قواهم ليتمكنوا من القضاء عليهم واحتلال بلادهم .

وكان للإنجليز اليد الطولى في تشجيع الحركات الانفصالية داخل الدولة العثمانية ، وإضعاف العصبية الدينية بين المسلمين وذلك لتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يتمكنوا من مواجهتهم واحداً واحداً . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفنيقيين . والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين ، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد وأحق الناس

---

(١) حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ ، ص ٣١٠ .
(٢) تبشير والاستعمار : ص ٣٧ .
(٣) لمصدر السابق : ص ٣٧ .
(٤) لمصدر السابق : ص ٣٧ .
(٥) لمسألة الشرقية : ص ٢١ .
(٦) يقظة العرب : ص ١٤٩ وما بعدها .

بالقيام على خلافة الإسلام [١] .

ولقد كان السلطان عبد الحميد على حق حين قال : « إن أكثر ما يجب على المرء أن يحذره من الدول الكبرى هو إنجلترا ، فالإنجليز قوم لا إلَّ لهم ولا ذِمّة » [٢] .

ولقد أدرك الزعيم المصري مصطفى كامل أهداف الإنجليز وأطماعهم . فأخذ يحذر المصريين منهم فقال : « إن جلالة السلطان صاحب الصوت الأول بين دول أوروبا في مسألة مصر ، ولا بد له من أن يأخذ بالثأر في مسألة بلادكم التي خدعه الإنجليز فيها أكبر خداع فيجب عليكم أن تكونوا على تمام الصفاء والوفاء في علاقتكم مع جلالة السلطان » [٣] .

وحذر المسلمين جميعهم من الإنجليز فقال : « واجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح . ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة [٤] .

وقال : « إن انكلترا هي أشد الدول كراهة للدولة العلية وللإسلام وأكثرها رغبة في هدم السلطنة العثمانية . وتقويض أركان الخلافة الإسلامية ... إنها العدوة الحقيقية الخداعة التي تلبس ثياب الصداقة طوراً وثياب العداوة طوراً آخر عاملة في الحالتين على الإضرار بالدولة العلية وعلى إضعاف نفوذ المسلمين ... إن انكلترا كانت تريد تقسيم الدولة العلية وإنها لبلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الأوروبية دخول البسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الأعظم قهراً . وقد فاه بهذا التصريح الخطير المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا [٥] .

ولقد أدركت القوى العالمية مقام السلطان عبد الحميد وفطنت لما يضطرم في نفسه من مشاعر وما يملأ فؤاده من أفكار وأحاسيس فأبغضته وناصبته العداء .

يقول مصطفى كامل : « والذي جعل الإنجليز يبغضون جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية » [٦] .

ولما تحدى السلطان عبد الحميد القوى العالمية ولم يتساهل في تحقيق أطماعها عملت على عزله .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ١ ، ص ١١١ .

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، ص ١١٢ .

(٣) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٤) المسألة الشرقية : ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ص ٣٤٦ .

(٦) المصدر السابق : ص ٢٠ .

من ذلك أن وفداً يهودياً زاره ، وعرض عليه السماح لليهود باستيطان فلسطين مقابل مبالغ كبيرة من المال هو في أمس الحاجة إليها . فكان رده عليهم : « إن أرض وطننا لا تباع بالدراهم ، وإن بلادنا التي حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا لا يمكن أن نفرط بشبر فيها دون أن نبذل أكثر مما بذلنا من دماء في سبيلها ... » [١] .

ثم قال : « بلغوا هرتزل . ألا يبذل بعد اليوم أي محاولة لبلوغ هذا الأمر ـ أمر دخول فلسطين والاستيطان بها ـ فإني لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى غير أهلها . فالبلاد ليست ملكي وإنما هي ملك لشعبي روى ترابها بدمائه فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » [٢] .

وأصدر أمراً [٣] بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين ، حين وقف على أطماعهم وأهدافهم وأنهم يريدون أن يتملكوا فلسطين ويتخذوها وطناً لهم وليسوا طلاب رزق ولا دعاة سلام ، ولقد قال عنهم في مذكراته : « لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين ، إنما يريدون أموراً أخرى ، كتشكيل حكومة وانتخاب ممثلين . إنني أدرك أطماعهم جيداً ، لكن اليهود يخطئون إذا ظنوا أنني سأقبل بمحاولاتهم فأنا إذا كنت أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين » [٤] .

وبعد أن أدرك اليهود ثبات السلطان عبد الحميد على رأيه ورفضه أطماعهم تعاونوا مع خصومه على إسقاطه وخلعه .

يقول عبد الله التل في كتابه الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : « حينما أدرك اليهود ثبات السلطان عبد الحميد في وجه أطماعهم ، زادوا من تآمرهم لإسقاطه ، واستعانوا بالقوى الشريرة التي نذرت نفسها لتمزيق ديار الإسلام وأهمها الماسونية والدونمة والجمعيات السرية (الاتحاد والترقي) . وحركة القومية العربية والدعوة الخبيثة للقومية التركية (الطورانية) . ولعب يهود الدونمة دوراً رئيساً في إشعال نار الفتن ضد السلطان » [٥] .

ولقد عملت القوى العالمية المعادية للإسلام على طمس محاسن السلطان عبد الحميد وتشويه سمعته ولم تترك عيباً من العيوب إلا ألصقته به وخاصة اليهودية العالمية ، ولا عجب

---

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٨٤ . ولاحظ مصدره .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ١٩٢ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٩٢ .

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية . ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٥) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٨٤ ـ ٨٥ .

« فدعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق وإبراز المساوئ وطمس المحاسن فنجحت تلك الدعاية في أوروبا وفي العالم بأسره . فلقد غدا من الأمور المسلم بها أنَّ المسلمين الأتراك متوحشون قساة . يرتعون في الفساد والانحلال . وحين أبرزت قسوة الأتراك طمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس ونجحت الدعاية اليهودية في تحريك المطامع الاستعمارية ودفعها لابتلاع أجزاء غنية من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون سلطان تركيا » [١]

وفي مذكرات السلطان عبد الحميد التي نشرت مؤخراً رد على أولئك الذين عابوه وشانوه . وجعلوه سلطاناً متوحشاً عَدُوّاً للعلم والعقل حيث يقول : « لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح جامعة ؟ وهل كنت أنشئ المدارس التي تعد للدولة الإنسان المثقف ؟ ولو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال دار المعلمات ؟ ولو كنت خصماً للعقل والعلم حقيقة . أكنت أجعل جامعاتنا في مستوى الجامعات الأوروبية ؟ وأفرض على طلابها دروس الحقوق ؟ وعندما أمرت بتدريس الفلسفة . تمرد الطلاب جميعهم وقالوا : إننا نريد أن نجعلهم كفاراً ولكني كنت أعرف أن الكفر ليس في العلم ولكنه في الجهل . وتمسكت بتدريس الفلسفة فدرسوها مع تعديل في الاسم . حيث أطلقنا عليها اسم « الحكمة » كما أمرت بتدريس هذه الدروس في الجامعة باسم (الفيزيقا) . » [٢] .

وقال : (... هل يمكن أن يكون عدواً للعلم والعقل سلطان بذل كل ما في وسعه قرابة ثلاثين عاماً لكي يرى في كل قرية مسجداً وبجانب المسجد مدرسة ؟) [٣] .

وحين قالوا عنه إنه سلطان أحمر يمنع نشر الأفكار ويكبت الحريات رد عليهم فقال : « بعض الشباب الذين كانوا يذهبون إلى أوروبا ... كانوا يرون السيدات يراقصن الرجال وكان هؤلاء الشباب يعجبهم الأوروبيون وهم يشربون الخمر فلما عادوا إلى بلادهم صاروا يدعون إلى ذلك كله ويعملون به مدّعين أن قمة الحضارة الأوروبية تتمثل في مثل هذه الأمور . ولقد كنت أقول إن هذا خطأ فكانوا يتهمون تفكيري بأنه كالعنكبوت .

وهناك ضرب آخر من الشبان الذين أرسلتهم إلى أوروبا درسوا الثورة الفرنسية وتعلموها ووضعوها نصب أعينهم دون أن يدرسوا أسباب انفجار هذه الثورة . ولما عادوا إلى البلاد جعلوا حب الوطن هو الدعوة لإثارة الشعب والعمل على تمرده ولم أكن لأسمح بهذا ... » [٤] .

---

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٧٧ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٧٧ .

(٤) المصدر السابق : ص ٨٩ .

ولقد أنصف الملك عبد الله بن الحسين ـ رحمه الله ـ السلطان عبد الحميد وذلك حين قال عنه في مذكراته : « زعم الناس أن عبد الحميد كان ظالماً . لقد كذب الناس . والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر المتحوط . ولقد عُرِف بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم إعدام في محكوم أبداً . إلا مرة واحدة . والبقية كانوا يتركون في السجون حتى يدركهم الموت . وأما الذين ينفون من بلادهم إلى اسطنبول أو من اسطنبول إلى الخارج . فهم أولئك الذين نمى إليه أنهم مخالفون له خارجون على سلطانه ، فيخرجهم إلى مكان لا يُعرفون فيه فيقي دولته بذلك من التدمير والفتن . ولئن أحصى الناس ما وقع بعده من صلب وتشريد ، وأحكام عرفية وصولات [١] في الشام واليمن من الحكومات الاتحادية . لَعُلِم أن ظلم عبد الحميد بالنسبة إلى أفعالهم كان دلاًّ محضاً [٢] ... وإنه ليصح القول بأن السلطان عبد الحميد ، كان آخر سلاطين المسلمين علواً ورفعة . وأشبِّه ما حصل بعد خلعه للمسلمين بما حصل عندما وثب أهل الكوفة وأهل مصر على أمير المؤمنين عثمان بن عفان . فإن كان عثمان هو لباب الأول الذي كسر بين الفتنة والناس ، فإن عبد الحميد كان الباب الثاني الذي كسر في العصر الأخير بين الفتنة والناس أيضاً . ولله تصريف الأمور ، وله الدوام والعزّة » [٣] .

وقد ظل أعداء السلطان عبد الحميد يُجسِّمون خطيئاته . ويبالغون في سقطاته ويشيعون عنه الأباطيل حتى تحقق لهم ما تمنوا ونجحت خططهم في عزله وتنصيب محمد الخامس بدلاً منه ليكون سلطاناً رمزياً . وقد وقع ذلك على أيدي زعماء جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٣٢٧ هـ ـ ١٩٠٩ م .

ومما يندي له الجبين أن يترأس أحد اليهود الوفد الذي قدَّم للسلطان وثيقة الخلع وأن يكون هذا اليهودي قراصو رئيس الجالية اليهودية في سالونيك [٤] وهو الذي صده السلطان مع هرتزل زعيم الحركة الصهيونية حين طلب منه السماح لليهود باستيطان فلسطين .

بل إن جميع أعضاء الوفد ليسوا أتراكاً أصليين وإنما كانوا مواطنين أتراكاً من نسل أرمني . ويوناني ويهودي [٥] .

وكان قرار الخلع قد عرض على شيخ الإسلام في تركيا لتصديقه حتى يأخذ صفته

---

(١) الصولة : السطوة في الحرب ونحوها .

(٢) الدلّ : العُنْج والشكْل .

(٣) مذكرات الملك عبد الله : ص ٢٩ .

(٤) سالونيك : ميناء يقع على بحر إيجه .

(٥) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ٢٠١ .

القانونية ، وقد صدق الشيخ عليه وهو محاط بحراب البنادق [١] ؟

وقد قال السلطان للوفد بعد أن أبلغوه بالقرار : « ذلك تقدير العزيز العليم » ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي ـ ويقصد قراصو ـ إلى مقام الخلافة [٢] ؟!.

* * *

(١) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ٢٠٠ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢١٠ .

شعر الوحدة في عهد السلطان عبد الحميد

تحدثنا عن دعوة السلطان عبد الحميد إلى الوَحْدة الإسلامية واستجابة المسلمين لندائه وموقف الدول الأجنبية منه ومن دعوته تلك ، والآن نقف مع الشعر لنرى مدى إسهامه في ذلك .

لقد أدى الشعر رسالته وأسهم الشعراء في الدعوة إلى وحدة العالم الإسلامي ، فأكبروا السلطان عبد الحميد وأثنوا على دعوته ، وحضوا المسلمين على الوقوف معه وتأييده ، وأشادوا بانتصاراته . وغدوا يرون فيه رمزاً للوحدة الإسلامية .

يقول الأمير شكيب أرسلان في مقدمة ديوانه : « لي عدة قصائد سلطانية كنت أمدح بها لسلطان عبد الحميد ، ولم أكن أقدمها للحضرة السلطانية ، وإنما كنت أنشرها في الجرائد تعضيماً لمقام الخلافة ، وتأييداً لوحدة الأمة » [١] .

وكان الأمير شكيب يرى أن حُبَّ الخليفة فرض ومدحه واجب حيث يقول مغالياً في ذلك [٢] :

فحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي ومدحك ذا فرضي ووتري وواجبي

وهو يقول في معرض حديثه عن مدائح شوقي :

(عاب بعضهم على شوقي وربما عابونا على مدح الامراء ومدح السلطان ... والحقيقة أن شوقي عندما يرسل كلماته الخالدة في مديح السلطان الخليفة فإنما يقدس مقام الخلافة العزيز على المسلمين الناظم لشملهم القائم في وجه عدوهم . فليس في هذا المذهب ما يدل على سلوك طريق التزلف كما يظن من لا يدقق في أسرار الأمور ، ولكنها الروح القومية والنزعة الإسلامية ، والنصح عن حوض الخلافة ، والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شيء بالدعاء الذي يقال في الجوامع نهار الجمعة استنزالاً من عند الله لنصر سلاطين الزمان الحافظين لكيان الأمة في الداخل والخارج . وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم ، وإنما هو للمقام الذي يتبوّءونه) [٣] .

---

(١) ديوان الأمير شكيب أرسلان : ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ٩٢

(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٥ .

ثم يقول : « إن استيلاء الأجانب على أكثر بلاد الإسلام واستئثارهم بالأمر والنهي ... حمل كثيراً من مفكري الإسلام على أن يتقربوا من ملوكهم وأمرائهم الذين يرون فيهم رمز السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق . وأن يشيدوا بذكرهم ، ويهتفوا بمبايعتهم ...

وبالجملة فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد [١] .

ويقول الشاعر أحمد الكاشف في مقدمة ديوانه : « لقد كاتبت الوزراء والعلماء وانتفعت بودهم ، وآخيت صفوة شعراء العصر ، وطارحتهم الشعر ، وتناجينا على بعد المزار واتفقنا على تأييد الخلافة العثمانية ، والتوفيق بين أمراء الإسلام ومحاربة البدع والأوهام » [٢] .

هذا ولقد كان معظم الشعراء الذين عاشوا تلك الفترة متعاطفين مع الدولة العثمانية على الرغم من اختلاف بيئاتهم وتباين نزعاتهم ، فكانوا يمجدون انتصارات تركيا الحربية ، ويهاجمون الخارجين عليها ، ويدعون إلى وحدة العالم الإسلامي في ظل راية الخلافة العثمانية ، وكانوا يرون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية وأن الجامع لكلمة المسلمين الموحد لصفوفهم إنما هو الخليفة ، وأن حروب الخليفة العثماني ليست إلاّ دفاعاً عن الإسلام والمسلمين [٣] .

وكان هؤلاء الشعراء يغتنمون الفرص للتعبير عن ولائهم لدولة الخلافة الإسلامية والخليفة العثماني ، فحين انتصرت الجيوش العثمانية على اليونان سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م طرب الشعراء لذلك النصر وهلّلوا وكبّروا ، وكان أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ في طليعتهم ، فنظم ملحمته الحماسية الطويلة التي افتتحها بتمجيد السلطان عبد الحميد فقال [٤] :

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ أغلب ... ويُنصر دينُ الله أيان تضربُ

ثم أشاد بالأتراك الذين رفعوا لواء الإسلام ، وأعلوا مقام المسلمين ، وزادوهم عزاً ومنعة ، وصانوا الخلافة فقال :

وزيد حمى الإسلام عزاً ومنعة ... ورُد جماحُ العصر فالعصر هُيَّبُ [٥]

رفعنا إلى النجم الرءوس بنصركم ... وكنا بحكم الحادثات نُصَوَّبُ

ومن كان منسوباً إلى دولة القنا ... فليس إلى شيء سوى العزّ يُنسبُ

---

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٢) ديوان أحمد الكاشف : ١ / ن

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ١ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) الشوقيات : جزء ١ ، ص ٣٠ .

(٥) يقال جمح الفرس جمْحاً وجمُوحاً وجِماحاً : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه .

والشاعر يؤكد أن آلام المسلمين واحدة ، ودينهم واحد ، ومذهبهم واحد فيقول :

يؤلف إيلام الحوادث بيننا ... ويجمعنا في الله دين ومذهبُ

ثم يختم القصيدة مخاطباً السلطان عبد الحميد بقوله :

فلا زلت كهف الدين والهادي الذي ... إلى الله بالزلفى له نتقرب

والشاعر يفرح بذاك النصر ويحمد الله عليه ، ويشيد بمساعي السلطان عبد الحميد في جمع الكلمة ، وتوحيد الصف فيقول [١] :

بحمد الله رب العالمينا ... وحمدك يا أمير المؤمنينا [٢]

لقينا في عدوك ما لقينا ... لقينا الفتح والنصر المبينا

جمعت لنا الممالك والشعوبا ... وكانت في سياستها ضروبا

ثم يتهكم الشاعر بالأعداء ويشيد بالخليفة الذي لا يغفل عن رعاية شؤون المسلمين فيقول :

فلما هبَّ (جورجيهم) [٣] هبوباً ... تلفت لا يصيب له معينا

رأى كيف السبيل إلى « كريد » ... وكيف عواقب الطيش المزيد

وكيف تنامُ يا عبد الحميد ... وتغفل عن دماء العالمينا

وبعد أن وصف الشاعر المعارك ختم قصيدته بمخاطبة بيت الخلافة فقال :

بني عثمان : إنا قد قدرنا ... فتوحكم الكبار وقد شكرنا

سألنا الله نصراً فانتصرنا ... بكم ، والله خير الناصرينا

وفي هذه الحرب ارتفع صوت الشاعر الليبي مصطفى بن زكرى بملحمة تزيد على مائة

---

(١) الشوقيات : جزء ١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) الملاحظ أن الشاعر كثيراً ما يستعمل بعض العبارات التي يحس بالمسلم ألا يستعملها .

(٣) ملك اليونان حينذاك .

بيت صوَّر فيها المعارك . وندد باليونانيين وشمت بهم فقال :

يـا سعـد سر مترنمـاً ... ببشائـر النـصر المبـين [١]
ودع المطيـة طـاويـا ... بحـر السفين علَى السفـين
واعـبر عُبـاب الـدردنيـ ... ـل ، وحـيِّ حَـيَّ الأكـرمـين
واعطف عـلى (دار الخـلا ... فـة) باليسار . وباليمـين
لا زال رونقهـا بِـدَوْ ... لتنـا يسرُّ النـاظريـن

ثم دعا الشاعر إلى الهتاف باسم الخليفة لأن جيوشه نصرت الإسلام . وردت عدوان اليونان على بلاد المسلمين فقال :

وإذا مـررت (بيَلْـدِز) ... وسعـدت بـالملـك المكـين [٢]
تـاج الخـلافة بهجة الـد ... ـنيـا . وعـز المسلمـين
عبـد الحميـد وناصر الـد ... ـين الحنيفـي المبـين
فاهتـف هنـالك بالـذي ... تـدري وتعلم من حنـين
وقـل : السلام عليـك ألـ ... ـفاً يـا أمـير المؤمنـين
أيَّـدْتَ بالفتـح المبيـ ... ـن دعائم الـدين المتـين
ونـصرت ديـن المصطفـى ... خـير البريـة أجمعـين

ولقد تحدث الشاعر عن تعصب اليونانيين وسفكهم للدماء التي لا ذنب لها إلاّ الإسلام ، وأشار إلى بغيهم وقتلهم النساء والأطفال فقال :

سفكـوا دمـاء مـا لهـا ... ذنبٌ سوى الإسلام ديـن
وجنـوا أمـورا كل قلـ ... ـب من فظائعهـا حزيـن
ومن السفاهـة والجفـا ... قتـل الحلائـل . والبنـين

(١) ديوان مصطفى بن زكري : ص ١٨٣ ـ ١٩٤ .
(٢) يلدز : قصر الخلافة بالقسطنطينية .

ثم سخر من ادعائهم الحكمة وقد ارتكبوا ما ارتكبوا فقال :

أو ما ادعيتم حكمة القُـ ـدَما . وعلم الأولـين ؟
فمن السياسة ما ارتكبـ ـتم . أم من الجهل المبين ؟

ثم يصور الشاعر ميدان المعركة على سفح جبل « ملونة » الذي غطته أجساد الجرحى . وحثث القتلى . وقد سقطت عليه قذائف المدافع سقوط القدر الذي لا يتخلف . فقال :

ملئت جبال (ملونة) بمدافع ومدافعين
تركت بني اليونان تهتف بالنواح وبالأنين
نطقت بألفاظ مقـ ـرة لها معنى متين
لا تقبل التحريف عن جسم البغاة الماردين
أم غركم حلم « الحميد » ورفقه بالعالمين ؟
أم تجهلون لقاء قو م في الحروب مجربين ؟
أم تحسبون الصرب والـ ـبلغار تنجد أو تعين ؟

وكان الشاعر المدنيُّ عبدُ الجليل برادة نزيلَ الدار العلية[1] إبان هذه الحرب فأنشأ قصيدة حاكى بها رائيه أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي التي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد افتخر المدني في هذه القصيدة بالجيوش الغازية وأظهر الشماتة باليونان فقال : [2]

كذا فليكن قهر الأعادي وهكذا تُخاض المنايا والحديد لها جسر
حديث عن اليونان يضحك باكياً ويطرب محزوناً ويلهو به غـر
صبرنا وكم عنهم عفونا فلم يفد وعن مثلهم لا يحسن العفو والصبر

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : جزء ٢ . ص ٧٨١ .
(٢) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ٧٨٢ .

ثم مدح السلطان عبد الحميد فقال :

فقـام أمير المـؤمنين لردعهم ... ببأس شديـد لا يقـوم له الصخـر
فأحيا مواتـاً للجهـاد تقادمت ... عليه دهـور لا يشاد له ذكـر

وهنأ السيد توفيق البكري السلطان عبد الحميد بانتصار الجيوش العثمانية بقصيدة تفيض بالروح الإسلامية استهلها بقوله : (١)

أمـا ويمين الله حلفة مقسم ... لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم
فلـولاك بعد الله أمست ديارُه ... بأيدي الأعادي مثل نهب مقسم
لقد سرّ هـذا النصر قبراً بطيبـة ... وبيتـاً ثوى عند الحطيم وزمزم

ثم طفق الشاعر ينعت السلطان عبد الحميد بجليل الصفات فقال :

إمام له في آل عثمان لحمـة ... تبجبح منها في الذرى والمقدم
يسوس الرعايا والبلاد بحكمة ... أقامت لدى نهج من الحق أقـوم
ويقطع أقران الأمـور بفيصل ... من الرأي يحكي منه ضربة مخـذم
رمى الروم لما أن عتوا بكتيبة ... تميـل بأعطاف الوشيج المقـوم

ولم تكن هذه الحماسة عند الشعراء وحدهم . بل كانت عند المسلمين جميعهم . من ذلك أنه بعد أن قامت الحرب اهتز المسلمون لها وماجوا ، وتألفت في مصر لجان لجمع التبرعات . ووضعت الصناديق في المساجد وفي المحلات التجارية ليضع فيها المتبرعون ما تجود به نفوسهم . وتقدم بعض ضباط الجيش المصري المتقاعدين ملتمسين قبول تطوعهم في الجيش العثماني .

وبعد أن وردت الأنباء بانتصار الجيوش العثمانية عمّت الفرحة ورفعت الأعلام العثمانية ونصبت الزينات ، وأقيمت الاحتفالات (٢) .

وذكر أحمد شفيق باشا أن الانجليز ساءهم هذا الحماس لتركيا . فوجهوا صحفهم

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : جزء ١ . ص ٤٣٠ .
(٢) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ . ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ .

والصحف الموالية لهم إلى القول بأن الاحتفالات التي أقيمت في مصر إنما هي بإيعاز من الحكومة المصرية ، والحقيقة التي يمكن تقريرها أن أحداً من رجال الدولة لم يتدخل في أمر هذه الاحتفالات بالصورة التي زعمتها هذه الصحف [١] .

وكان الشعراء حين يمدحون السلطان عبد الحميد يشيرون إلى الروابط الدينية ؛ فهو خليفة المسلمين الذي أنيطت به رعايتهم . وألقيت على عاتقه حمايتهم . وهو الجامع لكلمتهم ، الموحد لصفهم . فحينما تعرَّض لقذيفة ألقيت عليه وكتب الله له السلامة . نظم شوقي قصيدة هنأه فيها . وتغنى بالرابطة الإسلامية ، ونال من خصومها فقال : [٢]

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما ... نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لطه والكتاب وأمة ... بقاؤك إبقاءٌ لها وحياة
فلولاك ملك المسلمين مضيع ... ولولاك شمل المسلمين شتات
نجت أمّة لما نجوت ودوركت ... بلاد وطالت للسرير حياة

ومدح شوقي السلطان عبد الحميد فأشار إلى اجتماع الشمل به فقال : [٣]

أمة الترك والعراق وأهلو ... ه ولبنان والربا والخيام
عالم لم يكن لينظم لولا ... أنك السلم وسطه والوئام
أيها النافرون عودوا إلينا ... ولجوا الباب إنه الإسلام

ولقد اغتنم الشاعر هذه المناسبة فدعا الخليفة إلى نصرة مصر التي هي جزء من أجزاء الخلافة الإسلامية وهو الخليفة الذي أنيطت بعنقه رعاية شئونها وحمايتها من المعتدين فقال :

نستميح الإمام نصراً لمصر ... مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر وأنت بالحب أدرى ... بك يا حامي الحمى استعصام
وإلى السيد الخليفة نشكو ... جور دهر أحراره ظلام
وارْعَ مصراً ولم تزل خير راع ... فلها بالذي أرتك زمام

(١) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ ، ص ٢٤٣ .
(٢) شوقيات : جزء ١ ، ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق : جزء ١ ، ص ٢٩٧ .

وكان الشاعر الليبي سليمان الباروني يعتقد كما يعتقد الكثير من أبناء ليبيا أن الدولة العثمانية سند قوي لحفظ بلادهم من أنياب المتنمرين لها كفرنسا وإيطاليا [١] . ولذا نراه على الرغم من غضب الخليفة العثماني عليه لوشاية واش ـ كما يقول ـ [٢] يمدح الخليفة العثماني . ويصفه بأنه ملجأ المسلمين وملاذهم فيقول : [٣]

عبد الحميد لأنت حقاً ملجأ ... للدين والدنيا على رغم البليد [٤]

عبد الحميد قلوبنا ملئت فَقُل ... قوموا نقم وإلهنا عنا شهيد

وتوجه الشاعر إلى الله في قصيدة أخرى وسأله أن ينصر جند الخليفة فقال : [٥]

غازي العدا عبد الحميد المرتضى ... مَنْ سيفه لذوي الخيانة نار

انصر إلهي جنده نصراً عزيـ ... ـزاً لا يشوب زلاله الأكدار

وفي قصيدة ثالثة حض الشاعر الخليفة على أن يهب لنصرة هذا الدين والذود عنه . فعليه المعوَّل في ذلك فقال : [٦]

من ذا لدينك يا محمد بعد ذا ... والله أسدى أجره للمحسنين

غير الخليفة في الورى سلطاننا ... من آل عثمان أمير المؤمنين

ويصور أحمد نسيم فرحة الإسلام بالسلطان عبد الحميد وما حقق الله على يديه من نصر وعزٍّ للمسلمين فيقول : [٧]

وقد أعدت إلى الإسلام نضرته ... حتى ارتدى روضة باليانع الخضل [٨]

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ٢٢٤ .

(٢) ديوان سليمان الباروني : ص ١٧ . حيث يقول : « اتهمتني حكومتنا السنية سنة ١٣١٦ هـ وأنا قادم من مصر فالجزائر فتونس بسوء النية نحوها لوشاية من أرباب الأغراض يعلمهم الله . والله يعلم أني بريء . . » .

(٣) المصدر السابق : ص ١١ ـ ١٣ .

(٤) البليد : من حرم الذكاء والمضاء في الأمور .

(٥) ديوان سليمان الباروني : ص ٢٣ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٧) ديوان أحمد نسيم : جزء ١ . ص ١٣٩ .

(٨) اليانع : الثمر الناضج . خضِل خضلاً : ندي وابتل .

وبت ترعى الرعايا في مراقدها ... وصرت تحمي ذمار الفازع الوجل [١]
فلا برحت لهذا الدين تكلؤه ... حتى يعود إلى أيامه الأول

ويهنئ عبد المطلب السلطان بعيد الدستور . ويشيد بالخلافة التي حفظت وحدة المسلمين فيقول : [٢]

يا عيد حيٍّ وأنت خير نهار ... عبد الحميد بدولة الأحرار
ملك أقام على الخلافة منهم ... حرساً وقاها صولة الأشرار
من بعد ما كاد الزمان يُحِلُّها ... بالجور دار مذلة وجوار

وتناول أحمد الكاشف حالة الإسلام حين تولى عبد الحميد الحكم . وفرحة المسلمين به ، ورهبة الأعداء منه فقال : [٣]

إمام الهدى عبد الحميد خليفة الـ ... ـنبي الذي قام في الأرض يدبر
تملك والإسلام بين عداته ... تُسَفِّه من أحكامه وتحقر [٤]
فطارت قلوب المسلمين مسرة ... وخاف الأعادي بطشه فتطيروا

ثم أورد الشاعر طرفاً من أعمال عبد الحميد التي عادت على المسلمين بالخير فقال :

وقربت ما بين البلاد من المدى ... وناولتها ما باعها عنه تقصر
وألفت أشتات القلوب على الهدى ... فأصبح يخشاها الضلال المنفر

ثم أسبغ على عبد الحميد كثيراً من المآثر . فهو الذي أعز المسلمين من ذل . وآمنهم من خوف وأنقذهم من شر فقال :

أيا منهض الإسلام من شر عثرة ... بها كم رأينا الحق في الأرض يعثر
ويا ناصر الأوطان بعد انكسارها ... وظن بني الأوطان أن ليس تنصر

---

(١) الفازع الوجل : الخائف المذعور .
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٩٣ ـ ٩٤ .
(٣) ديوان أحمد الكاشف : جزء ١ . ص ١٠ ـ ١٣ .
(٤) يقال سفه علينا : جهل .

وهو الذي انتصر به الإسلام وتاه وافتخر . وهو الذي اندحر به الشرك وذل وتقهقر : [١]

يا ناصر الإسلام إن زماننـا ... بك صار في عزٍّ وفي استكبار
ومعز كل مسالم لك خاضع ... ومـذل كـل معانـد جبار

ثم بين عمق تأثره بالإسلام وخدمته له فهو يغزو ويجاهد لأجل دين الله ونصرته . لا للتسلط والظلم والكسب فقال : [٢]

ومـا غضبت لغير الله منتقمـاً ... وما قهرت سوى القوم الألى حقدوا
ومـا فتحت لغير الدين مملكة ... رأيتهـا عن سبيل الخير تبتعـد
أنهضتـه مسترداً فيـه قوتـه ... فقـام يمتد في الدنيـا ويطرد

ولذلك فإن الله يؤيد جيوشه بالنصر ويمدها بالملائكة . ولا غرو فهي جيوش عدتها الإيمان وسلاحها التقوى :

لك الجيوش التي كم فرجت كرباً ... كأنهـا قسطل في الجـو منعقـد [٣]
يسدد الله مرمـاهـا يؤيدهـا ... من الملائك في غاراتها مدد
لهـا على الموثق الديني متكل ... يوم الكفاح ومن أيمانها عُدد

ويدعو أحمد محرم العرب والترك إلى تقوية روابطهم في ظل راية الخلافة . ونبذ الفتنة . وحماية الإسلام فيقول : [٤]

يا آل عثمان من ترك ومن عـرب ... وأي شعب يساوي الترك والعربـا
سوسوا الخلافة بالشورى ولا تدعوا ... لفتنة في نواحي الملك مضطربـا
صونوا الهـلال وزيدوا مجده علماً ... لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبـا

(١) ديوان أحمد الكاشف : جزء ١ . ص ٨ .
(٢) المصدر السابق : جزء ١ . ص ١٥ .
(٣) القسطل : الغبار .
(٤) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤ .

وهو يعتز بالخلافة . ويفخر بالعثمانيين ولاة أمورها . وحماة ثغورها فيقول : [١]

لـولا بنو عثمان والسنن الـــذي ... شرعوا لنا وضح السبيل الأقـوم
سطعوا بآفاق الخلافـة فانجـلى ... عنها من الحدثان ليل مظلـم
فهـم ولاة أمـورهـا وكفاتهـا ... وهم حُمـاة ثغورهـا وهُمُ هُـمُ
تعتـزُّ آنـاً بالسلام وتـارة ... بالحرب يزخر في نواحيها الـدّم
فبتلك يُكْفَـى الملك ذا شحنـائه ... ويصان من كيد الخطوب ويعصم

ثم يضم نفسه إليهم ويرى أنّه واحدٌ منهم فيقول : [٢]

إنـا بنو عثمان أعلام الـورى ... والأرض تشرف فوقها الأعـلام
إنا السنام إذا الأنـام تفاخرت ... والنـاس فيهـم مَنْسم وسنـام [٣]
إنـا يسوس أمـورنا ويقيمهـا ... ملك بأمر إلهـه قَـوّام

والشاعر يدافع عن بني عثمان ويرد على عاذليهم : [٤]

عذلت بني عثمان والعـذل يؤلم ... وملت عن المدح الذي كنت تنظم
حنانك بالقـوم الألى أنت منهـم ... ورأيك في القـوم الذين هم هـم
أعيذك من قـول الـوشاة تغـبرت ... خلائقه واعـوجّ منـه المقـوّم

ويشيد بانتصارات السلطان عبد الحميد . فقد حمى لواء الإسلام وصان ذمار الحق فيقول : [٥]

حميت لـواء الملك ، فارتد طالبه ... وصنت ذمار الحق ، فاعتز جانبـه
وأدركت نصراً ما رمت ساحة الوغى ... بأمواجهـا حتى رمتهـا غـواربـه
إذا النصر عادى في الوغى جند مدبر ... فجندك مـولاه ، وسيفك صاحبه

---

(١) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق : جزء ١ . ص ٢٣ .
(٣) المنسم : خف البعير .
(٤) ديوان أحمد محرم : جزء ١ . ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٥) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

وهيهات أن يطمع ببلاد المسلمين طامع . وللخليفة من أحفاد خالد جنود يجيبون دعوته إلى الجهاد كلما دعاهم :

أفي معقل الإسلام تطمع أمة ... تبيت مناياها حيارى تراقبه ؟
إذا لمحت إيماءة منه أجلبت ... على القوم حتى يسأم الشر جالبه
كتائب من أقوامنا (خالدية) ... وما الحرب إلا (خالد) وكتائبه

وقد انطلقت جيوش الخليفة تصونها الرعاية الإلهية . وترفرف عليها رايات النصر :

مشت تأخذ الأعداء . والله قائم ... عليها . ودين الله يعتز غالبه
إذا لمست حصناً هوت شرفاته ... وإن لمحت طوداً تداعت مناكبه

ثم حيا الشاعر سيوف بني عثمان التي ورثوها عن سيف الله خالد . وعم الرسول حمزة فقال :

لنا من (بني عثمان) سيف إذا انتمى ... تسامت به أعراقه ومناسبه
(لحمزة) حد منه غير مكذب ... وحد (لسيف الله) شتى مناقبه
إذا ما دعا الشم الأباة لغارة ... دعا(البيتُ)فيه واستجابت(أخاشبه)

والشاعر لا يمدح العثمانيين رغباً أو رهباً وإنما يقضي بهذا المدح واجباً دينياً فرضه الله عليه فيقول :

قضيت لهم في الله واجب حقهم ... وكيف بحق الله إن ضاع واجبه ؟

ثم يُبين الشاعر الأسباب التي دفعته إلى مديح عبد الحميد فهو الذي حَمَى حِمى الإسلام . وصان ذمار الدين : [1]

حمى بيضة الإسلام عن يد لامس ... فأصبح من كيد العدا وهو سالم
وصان ذمار الدين والدين حوله ... أَيَامِنُ من أعدائه وأشائم
هو الذائد الأعداء عن حوض مجده ... بصارم عزم لا يحاكيه صارم

(١) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

وهو الذي أعاد للملك المسلمين ما ذهبت به الأيام . وصانه كما يصون الأسد عرينه :

عبد الحميد أتاح في أيامه ... للملك ما ذهبت به الأيام
لولا حزامته وشدة بأسه ... ومضاؤه لتضعضع الإسلام
ما زال يحمي حوضه مذ جاءه ... وكذاك يحمي غِيله الضرغام

وهو الذي شد من أزر الخلافة حتى هابتها ضمائر الأعداء :

منع الخلافة أن تنال صروحها ... حتى تحامت سُوحها الأوهام [١]

ولولا عبد الحميد ما طابت الخلافة نفساً ولا قرت عيناً : [٢]

هذي الخلافة طابت نفسها وغدت ... فرحى ولولاك لم تفرح ولم تطب

وكان الشاعر يرى أن الخلافة مصدر العز للمسلمين . ويعتقد أن الدفاع عنها والذود عن حماها واجب . ويفخر بموقفه وموقف عشيرته من الخلافة فيقول : [٣]

ونرفع للخلافة جانبيها ... وندعمها إذا مال البناء
نصون ذمارها بالبأس . إنا ... « وآل محمد » فيها سواء
ورثناها فما غفت المواضي ... وإن خان الحماة الأوفياء
حماة الملك والإسلام فينا ... وجند الله منا واللواء
ينازعنا حمى عثمان قوم ... هم المكروه والداء العياء
ولو ملكوا الخلافة لاستبيحت ... محارمها وأعوزها الوفاء
وبيع المسلمون بكل أرض ... كما بيع العبيد أو الإماء

ولقد كان أحمد محرم صادقاً مخلصاً في دفاعه عن العثمانيين وحبه للخليفة . ولم يكن متزلفاً يطمع في عطائهم . وإنما كان رجلاً عصامياً يرى الخلافة رمزاً للوحدة الإسلامية .

---

(١) السُّوح : جمع ساحة . وهي المكان الواسع .
(٢) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤٢ .
(٣) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ٢١٣ .

ويرى الخليفة موئلاً للمسلمين . فهو الذي صان شملهم من أن يتفرق وحفظ دينهم من أن يتمزق . ولما عزل السلطان عبد الحميد . وأفل نجمه ظل الشاعر على وفائه له . فنظم فيه قصيدة قال فيها : [١]

ثوى عاثر الآمال يؤنسه الأسى ... وتوحشه أوطاره ومآربه
كأن جلال الملك لم يبد حوله ... مهيباً ولم تضرب عليه مضاربه
كأن السرايا والفيالق لم تسر ... إلى الموت تثني دونه من يحاربه
كأن رءوس الصيد لم تك خشعاً ... لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كأن بغاة الجود والمجد لم تفد ... عليه ولم تهطل عليهم مواهبه
كأن بغاة الشعر لم تغش بابه ... بمستعليات تزدهيها مناقبه

ثم هاجم الشاعر المتزلفين المنافقين الذين أطروا عبد الحميد يوم كان خليفة . وعابوه وذموه حين نحي عن الخلافة فقال :

كأن الألى زانوا المنابر باسمه ... أحلُّوا بدين الله ما لا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده ... وكل امرئ رهن بما هو كاسبه

ثم قَرَّع الشعراء الذين يمدحون ذوي السلطان وهم على عروشهم ثم يذمونهم إذا زالوا عنها فقال :

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا ... عليه وإن كانت قليلاً معايبه
ألم يك ظل الله بالأمس بيننا ... نلوذ به والخطب ضَنْكٌ مذاهبه [٢]
أنطريه قهّاراً ونؤذيه مرهقاً ... كفى الليث شراً أن تُفَل مخالبه

ولقد أشفق الشاعر على السلطان المخلوع عن عرشه ودافع عنه فقال :

ألا راحم ؟ هل من شفيع أما كفى ؟ ... أكل بني الدنيا عدو يغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى ... مسرته في أن ترن نوادبه ؟

(١) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ ، ص ٨ .
(٢) ظل الله على الأرض : هو لقب الخليفة التركي .

أكـل مآتيـه ذنوب ؟ أكلـــه عيوب ؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟
أكل ذوي التيجان بالعدل قائم ؟ أما فيهم من لا تُعد مثالبـــه ؟

ثم ألقى على عاتق بطانته ما وقع في حكمه من هفوات فقال :

أليس الألى غشّوه أجدر بالأذى ؟ وأولى الورى بالشر من هو جالبـه

وللشاعر الأحسائي عبد العزيز العلجي قصيدة مدح فيها السيد طالب أمير الأحساء وأحد رجال الدولة العثمانية البارزين . ولم يفته مدح السلطان عبد الحميد فأشاد به ونوّه بعساكره فقال : (١)

إمام الهدى عبد الحميد الذي بـه وصَوْلتِه الكُفَّار بَـادَتْ جُنُودُهـا
خليفة دين الله أيـان يمَّمـت عساكرهُ بالله تعلـو حدودهـا
إماماً يُـوالي أُمّة أحمديـة ظلالاً تقيهـا أو غياثـاً يجودُهـا

وشارك الشاعر العراقي جعفر كمال الدين الحلي غيره من الشعراء فمدح السلطان عبد الحميد حامي حمى المسلمين ومذل الشرك والمشركين فقال : (٢)

حفظ المهيمن حافظ الإسلامِ وأعز جانبه مدى الأيـــام
هدمت حصون المشركين ببطشه وأبيد أهـل عبـادة الأصنـام
مولى حمى دين النبي محمد بالماضيين السيف والأقـــلام

ولذا فحري بأهل النجف أن يخلصوا له ويدعو له :

إنا بنو النجف المشرف لم نزل لمليكنـا ندعـو مـدى الأعوام
لـولا أمـير المؤمنين وسيفـه فالدين مثـل وساوس الأحلام

أما الشاعر أحمد عزة الفارقي فيفدي السلطان عبد الحميد بنفسه حيث يقول : (٣)

(١) شعراء هجر : ص ٤٤٥ .
(٢) شعراء الحلة : جزء ١ ، ص ٢٤٠ .
(٣) الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر : ص ٤٢ .

أمير المؤمنين فدتك نفسي ... وروح العالمين لك الفداء
لأنت حياتنا وعماد ديسن ... وروح العالمين لك الفداء
وأنت خليفة الرحمن فينا ... تدبرنا كما شاء القضاء

فهو الذي نشر العدل بين الناس . وطوى الظلم . وقضى على الباطل . وساوى بين الرعية في عدله . فحاكى الخلفاء السابقين بسيرته :

نشرت عدالة وطويت ظلماً ... فهذا النشر فيه الانطواء
محوت بنور عدلك كل ظلم ... ودهم الظلم يمحوها الضياء
جعلت الحق منهاجاً سوياً ... ففيه الناس كلهم سواء
فهذا منهج الخلفاء قدماً ... تسير به الرعيسة والرعاء

ثم إن الشعراء هاجموا الولاة العابثين بالأمن . ومن أولئك شريف مكة (عون الرفيق بن محمد بن عون) فقد هاجمه شوقي ونظم قصيدته التي أطلق عليها (ضجيج الحجيج) ورفعها إلى السلطان عبد الحميد وشكا فيها اضطراب الأمن في الحجاز وندب حالة الحجاج هناك فقال : (١)

ضج الحجاز وضج البيت والحرمُ ... واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العلم
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله منتقم

ثم طلب من الخليفة أن يؤدبه لأنه فاسق لا حرمة له فقال :

أدبه أدب أمير المؤمنين فما ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما ... بين البغاة وبين المصطفى رحم

(١) الشوقيات : جزء ١ . ص ٢٦٣ .

ومن الشعراء الذين هاجموا هذا الشريف حافظ إبراهيم حيث قال : [١]

ما للشريف المنتمي حسباً إلى ... خير البرية من بني عدنان [٢]
أمسى يُمالئه وينصر غيَّـــه ... وضلاله بحُثالـة العربـــان [٣]

ثم أقسم الشاعر بأن أمير المؤمنين لن يعجز عن رمي كيده في نحره فقال :

تالله لو جندتمـا رمل النقـــا ... ونزلتمـا بمـواطن العقبـان [٤]
وغرستما أرض الحجـاز أسنة ... وأسلتما بحـراً من النـيران [٥]
وأقمتما فيهـا المعاقـل منعـــة ... من أرض نجد إلى خليج عمـان [٦]
لدهاكمـا ورماكمـــا وذراكما ... ماحي الحصون وماسح البلدان [٧]
إن تأتيـا طوعـاً وإلا فأتيـا ... كرهاً بلا حول ولا سلطان

هذا وخلاصة القول إنَّ أولئك الشعراء الذين ألْممنا بهم كانوا ـ على الرغم من اختلاف بيئاتهم وتنوع شخصياتهم ـ يشيدون بصفة من صفات الخليفة أو موقف من مواقفه . أو خصلة من خصاله . ويدافعون عنه . ويهاجمون الخارجين عليه . وقد كان يدفعهم إلى ذلك تعلقهم بالوحدة الإسلامية وحرصهم على جمع كلمة المسلمين تحت لواء واحد .

* * *

(١) ديوان حافظ إبراهيم : جزء ١ . ص ٤٩ .
(٢) لمنتمي : المنتسب .
(٣) يمالئه : يشايعه . والحثالة : سفلة الناس .
(٤) الضمير في (جندتما) يعود إلى والي الحجاز وشريف مكة . والنقا : القطعة العظيمة من الرمل تنقاد محدودبة . شبه بها الجنود في كثرة العدد . ويقصد (بمواطن العقبان) : رءوس الجبال . والعقبان : نوع من الطيور الجارحة .
(٥) لأسنة : الرماح .
(٦) لمعاقل : الحصون . واحدها معقل .
(٧) ذراكما : فرقكما من ذرت الريح التراب في الهواء تذروه دروا وتذريه ذرياً . إذا فرقته وأطارته . والمقصود (بماحي الحصون) السلطان .